التأويل 7

كيف غبشت التأويلية الإغريقية الأسطورية على التأويلية القرآنية العلمية بسبب التثاقف المعكوس

أثر تلاقح الأفكار في العصر العباسي

كان لزخم الترجمات المتعددة من اللغات الحضارية السابقة على الإسلام في العصر العباسي: إغريقية، وفارسية، وسريانية، وهندية،..وتشعب الموضوعات المترجمة من: فلسفة، وطب، وعلم هيئة، ونجـوم،.. التـي حـصلت لتـراث وموروث المنطقة الموغلة في التحضر والتخثر، أيام دولة العباسيين، أن توسعت الثقافة العامة في الحواضر الإسـلامية بدافع عوامل التأثر والتأثير.

وكان الأثر المباشر لهذا التلاقح الفكري أن اغتنت اللغة العربية، الوعاء الحامل للمنظورية الإسـلامية، برصـيد لغوي هائل لم تعهده من قبل والتي انتقلت في ظرف وجيز لا يجاوز القرنين من لغة بدوية محلية محصورة بـين تهامـة والحجاز ونجد إلى لغة عالمية تعمل كقاطرة للتواصل بين شعوب غطت منطقة جغرافية امتدت ما بين تخوم السند شـرقاً والأندلس غرباً. هذه العالمية جعلت من اللغة العربية الطريق السيار الإجباري، الذي يجب على كل العلوم أن تسلكه، إن هي رامت بجد أن تكتسب لنفسها إما سمة العالمية أو العِلمية أو كلاهما معاً، أو تطمح لأن تكون كذلك.

وهي نتيجة تحسب في صالح الحكم العباسي، بالرغم من كل مساوئه الأخرى التي لا تكاد تعد أو تحصى كالاستبداد بالحكم وانشطار المجتمع إلى طبقة مترفين همهم الأكبر: الفساد والإفساد والتكثير من الضيعات والجواري ودخل الريـع وطبقة معوزة لا تجد ما تسد به الرمق، على ما سيورد أبو حيان التوحيدي كشاهد قرن في كتابه: "الإمتاع والمؤانسة"

ولم يكد يبزغ فجر القرن الرابع الهجري، حتى كانت عملية الهضم لمعارف السابقين قد تمت وبدأ طور الإسـهام والعطاء الحضاريين في البروز، خصوصاً في العلوم والفلك والرياضيات، بالرغم من تصدع الخلافة العباسية سياسياً.

وقد تأثرت كل مساقات المعرفة ومناحي الثقافة بهذه المؤثرات الخارجية المترجمة، حتى بدأ يعزُّ العثور على فرع من فروع المعرفة الإسلامية، لم يتلون بهذه الثقافة الوافدة أو بالأحرى المعربة، لأنها كانت موجودة أصلاً ضـمن هـذه

البيئات التي انفتحت على الإسلام كعقيدة. وكان منتظراً أن تحدث انزياحات في المفاهيم والتصورات الإسلامية الصرفة سواء من جهة الموضوعات أو المنظورية، أو المضامين، أو في مدلولات الألفاظ، إلى أن اختلط الحابل بالنابل في كثير من العلوم، وحتى في أخصها خصوصية وحميمية ووشيجة وارتباطاً بالمرجعية مثل: "التفسير" و"التأويل" و"علم أصول الدين"، التي أصابها جميعها من هذا الزخم المترجم إما وابل لا ينقطع أو طل عابر أو على الأقل بعض رشاش ورذاذ سيغبش على الكثير من التصورات المفهومية الأساسية ويحدث فيها تشققات عقدية وانزياحات دلالية ستعيش مع مرور الزمن حياتها الخاصة بها بمعزل عن المجتمع الحامل أو المضامين المحمولة، إلى درجة أن افتقدت الأصالة بمرة من الكثير من الحقول وعمّت في المقابل التلفيقية والتهجينية في كل شيء حتى صارت السمة البارزة في كل صادر ووارد، قبل أن تنقلب بعض المفاهيم العقدية الأساسية من فرط التهجين الذي أصابها إلى أضدادها تماماً، كما سيحصل في مفهوم "التأويل".

وكان طبيعياُ أن يصاحب ضعف الاستبداد المركزي لمؤسسة الخلافة نمو قوة الأطراف على حسابها، بحسب سطوة ونفوذ المستبدين الجدد، كما سيحصل في فترة استحواذ قواد الجيش البويهيين، ثم السلجوقيين الأتراك الذين سيخلفونهم من بعد.

وهكذا، وبعد أن كانت عاصمة "**الخلافة**"! بغداد عاصمة لإمبراطورية مترامية الأطراف (أنظر الخريطة المصاحبة)، لم تعد مع مطلع القرن الرابع الهجري سوى مركز مضمحل يتشرنق حول ذاته وفي تقلص جغرافي مستمر، لا يتعدى نفوذه سواد العراق.

ولولا وجود مقر الخلافة في بغداد وما تبقى في نفوس أهلها من أنفة الإسلام وحنين يشدهم شـــدّاً إلـــى عظمتـــه وسالف مجده، وتمسكٍ بتقاليد تشجيع المعارف، واستمرار الحياة الإدارية والنشاط الثقافي بزخمهما الخاص، لما تميـــزت بغداد في هذه الفترة الحالكة من تاريخ الدولة العباسية، عن أية حاضرة أو عاصمة من عواصم الدويلات التي نـــشأت أو نبتت على أطرافها كالفطر وانتشرت حولها كأورام سرطانية لا شفاء منها.

وكان لقيام مثل هذه الدويلات، ضمن الصيرورة التاريخية للدولة الإسلامية أثره الإيجابي في بعض مناحي الحياة، كما كان له جانبه السلبي السيئ والمفجع في أخرى.

الإيجابي منه، صبَّ في خانة تشجيع المعارف من طرف هؤلاء الحُكّام العَسكر المـــستبدين الأمِّيـــين، يحـــاولون محاكاة العاصمة بغداد في تليد مجدها وعزها ووهجها القديم فأنشئوا البلاطات وجمعوا لها من أهـــل القلـــم والمعرفـــة والأنس ما استطاعوا في كمافسة قوية لعاصمة الخلافة.

وتمثل **الشق السيئ** في تشرذم الدولة وتمزقها والقضاء على وحدة دار الخلافة السياسية، حيـــث عمـــل هـــؤلاء القواد الأميون المستقلون بأمورهم عنها والمستبدون في آن على تفكيك لحمة المجتمع ككل بحروبهم الداميـــة والعاتيـــة

والقاسية والمستمرة وما كان يستتبع ذلك من استبداد وطغيان وضياع للحقوق وتغلب المراسيم والشكلانيات في مظـاهر التدين على حساب المضامين.

وأصبحت الدويلات في انقضاضها على سطوة مركز الخلافة، أو على بعضها البعض عاملاً من عوامـل التفرقـة والفتنة والثورة وعدم الاستقرار إلى درجة أن شرعت بعض هذه الدويلات تعامل المسلمين في حرروبهـا التـي لا تكـاد تنتهي، كأسرى حرب تسري عليهم قوانين الحرب فتُسبى ذراريهم ونسوتهم وتُقتل رجالاتهم! وكأنهم طلائع فـتح جديـد يجددون العهد بإعادة غزو بلاد المسلمين، كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله!.

وقد استهل القرن الرابع بداياته بفتنة القرامطة على أسوار وأبواب بغداد، ليتوجوا سيرتهم الكُفريـة باسـتيلائهم على مكة سنة 317 هـ/929 م، وقتلهم للحجيج في الموسم في واضحة النهار، دون وازع من دين أو شفقة أو رحمـة، واقتلاعهم لباب الكعبة وأخذهم للحجر الأسود إلى هجر بمنطقة الأحساء[1]. وهي فعلة تنبئ عن مدى الخلل الـذي أصـاب اعتقاد بعض فئات المجتمع كردة فعل على تهرؤ الخلافة أو ما تبقى منها أو من اسمها.

وقد أقاموا بمكة ستة أيام لم يحج فيها أحد! وبلغت الجرأة بزعيمهم **أبي طاهر: سليمان بن أبي سعيد الجنابي** (ت: 332 هـ) أن خطب في الحجيج صادعاً![2]:

{أنا بالله وبالله أنا، يخلق الخلق وأفنيهم أنا!}

والملفت من وجهة نظر شرعية وتاريخية هو أن دولة بني العباس تأسست على دعوى باطلة لا تقرها نـصوص الإسلام الكوني المبعوث رحمة للعالمين، حين ادعى ملوكها أحقيتهم في حكم المسلمين بناء على ما يجري في عـروقهم من دماء فاترة بسبب القرابة التي تجمع بين النبي صلى الله عليه وسلم وعمه العباس!

---

[1] ولن يرجعوه إلا سنة 329 هـ. وكان قد بُذل لهم فيه خمسون ألف دينار فلم يقبلوا!. أنظر: شذرات الذهب (2: 348)

[2] أنظر: ابن العماد الحنبلي: "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" (2 : 274)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

وهي فرية سيستغلها الفرع العلوي بدوره، حيث سيستولى الفاطميون، الذين لا يقلون صلافة ولا دعوى في هــذه الأحقية للحكم بقرابة النسب، على مصر والشام سنة 359 هــ/ 969 م وليؤسسوا مدينة القاهرة سنة 362 هــ لينافسوا بها بغداد ويعملوا لاحقاً بجد على اجتثاث ما تبقى من خلافة بني العباس، باعتبار أنفسهم:

خلفاء لله في الأرض كلها وليس خلفاء على المسلمين فحسب

وظهرت كذلك في أطراف دار خلافة بني العباس، أو ما تبقى منها، **دولة بني حمدان المتشيعة لآل البيت**، لتبسط نفوذها على كل من مدينتي **حلب** و**الموصل**[3]، وشاركتها في تقطيع ما تبقى من أوصال تركة الخلافة العباسية المتهرئــة، دويلات ثلاث أخرى سيكتب لها أن تلعب أدواراً سياسية وعسكرية وثقافية على قَدَرها في هذه الفترة.

من هذه الدول:

أ) الدولـة السامانية (261 هــ - 389 هــ)، وشملت خراسان وما وراء نهر جيحون (أموداريا) وجرجان وطبرستان، وقومس، والري، وقزوين، وأبهر، وزنجان (الخريطة).

[3] سلالة عربية حكمت في بلاد الفرات والشام من 29/904-1003 م. أنظر لمزيد هذا الرابط {http://www.hukam.net/family.php?fam=46}

ويقول أبو إسحاق: إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري (ت: 346 هـ) في حقها[4]:

{هذه مملكة ما علمت أن الأكاسرة جمعتها لرجل واحد}

قلت:

وهي بلاد كانت الغلبة فيها **للفقهاء والمحدثين**. وقد يبلغ بها الفقهاء من النفوذ والشهرة والرِّفعة والسلطة درجة توازي درجة الملوك أو تزيد. وأخرجت في الحديث الإمامين:

البخاري ومسلم في القرن الثالث الهجري،

ومن رجال الشافعية:

محمد بن علي القفال الشاشي (ت: 365 هـ)، **ومحمد بن الحسن: ابن فورك** (ت: 406 هـ)، و**أحمد بن الحسين البيهقي** (ت: 458 هـ)،

ومن الأحناف:

أبي منصور، محمد الماتريدي (ت: 333 هـ)..وغيرهم.

ب) الدولة البويهية الفارسية (321 هـ -447 هـ)، وقد بسطت هذه نفوذها على جزء كبير من العراق وجنوب فارس (أنظر الخريطة)، وجعلت من أبهة بلاطها، ما كان للخلافة العباسية في صدرها الأول. وقد شجع أمراؤها، وعلى فارسيتهم وميولاتهم الشيعية، الآداب العربية واللسان العربي والعلم العربي، ونبغ فيها علماء مخضرمون جمعوا ما بين ثقافة الإسلام وثقافة الأمم.

[4] الإصطخري: "مسالك الممالك"، ص. 86، بعناية دي غويه، ليدن (1870 - 1894 م)، هولندا.

ولإعطاء فكرة عما آلت إليه المعارف والعلوم في هذه الدويلة في هذه الفترة من تـــاريخ المـــسلمين، يكفـــي أن نتعرف على نموذج واحد ممن مثّلوا هذا العصر وثقافته المخضرمة خير تمثيل، على ما جاء في وصـــف أحـــد رموزهـــا المبرزين، وهو الوزير **أبو الفتح، علي بن محمد بن الحسين الشهير بابن العميد** (ت: 366 هـــ)، الملقـــب **بذي الكفاءتين**: كفاءة السيف والقلم، كما جاء وصفه عند **أحمد بن محمد بن مسكويه** (ت: 421 هـــ) في كتابـــه: "**تجارب الأمم**":

{كان هذا الرجل أكتب أهل عصر، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحـــو والعـــروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام..

فأما "**تأويل القرآن**"، وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه فـــي أرفـــع درجـــة وأعلى رُتبة، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ الهندسة والتعاليم لم يكن يُدانيه فيها أحد،

فأما "**المنطق**" و**علوم الفلسفة!!!! والإلهيات!!!! منها خاصة**، فمـــا جـــسر أحـــد فـــي زمانـــه أن يـــدعيها بمحضره![5]...ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة ك "**علوم الحيل**" التي يحتاج إليها في أواخر العلـــوم الهندســـية والطبيعة والحركات الغريبة وجر الأثقال وعمل آلات غريبة لفتح القلاع، والحيل والحصون،...}

قلت:

[5] وهل يحتاجون؟

فمفهوم "التأويل" عند ابن العميد هنا، تأويل مدغول لا علاقة له بمدلوله القرآني الصرف الذي يعنى بمآلات الأمور ونهاياتها وتحققاتها على أرض الواقع من باب التصديق، وإنما "التأويل" بمفهومه الفلسفي لدى الإغريق !. وهو ما مثّل بالنسبة للمرجعية الإسلامية زبداً سيكون له أثره وما بعده.

ت) الدولة الغزنوية (551 هـ - 582 هـ)، أو دولة بني سُبكتكين السُنّية, وهي دولة اشتهر منها على الخصوص، محمود بن سبكتكين الغزْنَوي (361 هـ - 421 هـ)، الذي وسع سلطانه جهة الهند إلى ما وراء كشمير وبنجاب واستولى على بخارى وما وراء النهر واقتطع إقليمي الري وأصفهان من دولة البويهيين (أنظر الخريطة).

وعندما سقطت بخارى وخوارزم في يد محمود فرّ منه المتفلسف المحسوب على الإسلام: أبو علي الحسين بن عبد الله : ابن سينا (ت: 428 هـ)، بينما وقع العالم المُخضرم أبو الريحان: محمد بن أحمد البيروني (362 هـ - 440 هـ) في الأسر، ضمن كوكبة من المتعاطين ل "الفلسفة" فاتهمهم محمود بالزندقة والقرمطة وأعمل في بعضهم السيف، ومنهم أستاذ البيروني عبد الصمد بن حكيم. بل لم يشفع للبيروني نفسه، سوى كون أحد المقربين من محمود، علِم بقدر الرجل، فكلّمه فيه ليخلي سبيله!.

قلت:

وظاهر من سابقة محمود هذه أن الفلسفة اعتبرت دخيلة على المرجعية في نظره وبكونها قاطرة للزندقة والإلحاد

ويقول البيروني، الذي سيقول عنه المستشرق الألماني إدوارد ساخاو (Sachau) (1845 – 1930 م)[6] بأنــه:

"كان أعظم عقلية عرفتها القرون الوسطى"، بخصوص منطق أرسطو[7]:

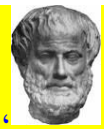

ولكن المنطق، لما كان منسوباً إلى أرسطوطاليس، وقد شوهد مــن آرائــه واعتقاداتــه ما لم يوافق الإسلام، إذ كان يرتئيها هو عن نظر لا عن ديانة – فقد كان اليونانيون والروم في زمانه يعبدون الأصنام والكواكب – فصار الآن من يتعصب عن تهور ينسب لأجله كل من تسمى باسم يختتم بالسين إلى الكفر والإلحاد. والسين (S) فــي كلام القوم (الإغريق) ولغتهم غير أصيلة في الإسم، وقائمة مقام الرفع للمبتدأ به في لغة العرب[8]. على أن ترك الــشيء وتزييفه بُغضاً لصاحبه، والإعراض عن الحق لأجل ضلال قائله في غيره، أخذٌ بخلاف ما نطق التنزيل (القرآن) به. قــال الله تعالى: {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله}

ثم بيّن كيف وجد هذا المنطق طريقه إلى علماء الكلام والفقهاء بقوله:

{نعم، كُتِبَ المنطق بألفاظ تشابه ألفاظ اليونانيين، وعبارة خلاف المعهودة بين المُحدَثين، والأمر ذاته دقيق يلطف فيصعب على القوم مأخذه، وينحرفون عنه لأجله. وها نحن نراهم يستعملون في الجدل وأصول الكلام والفقه طرقه، ولكن بألفاظهم المعتادة فلا يكرهونها، فإذا ذُكر لهم: إيساغوجي[9] ، وقاطيغورياس[10]، وباري أرمينيــاس[11]، وأنولوطيقــا[12]، رأيتهم يشمئزون عنه وينظرون نظر المغشي عليه من الموت وحق لهم.

---

[6] ALBERUNI'S INDIA. AN ACCOUNT OF THE RELIGION, PHILOSOPHY, LITTERATURE, GEOGRAPHY, CHRONOLOGY, ASTRONOMY, CUSTOMS, LAWS AND ASTROLOGY OF INDIA

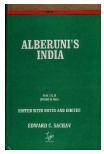

ABOUT A.D.. EDITED WITH NOTES AND INDICES BY DR. EDWARD C. SACHAU

[7] البيروني: "كتاب تحديد نهاية الأماكن.

[8] هذا ما ينبئك أن البيروني كان يعرف لغة يونان.

[9] ومعناه : المدخل ويتبين فيه الألفاظ والمعاني المفردة من حيث هي عامة كلية وهي : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . وإيساغوجي مطبوع في مصر بشرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وعليه حاشية للشيخ حسن العطار وأخرى للشيخ الحفني وهو مطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي في مصر..

[10] ومعناه : المقولات ويتبين فيه المعاني المفردة الشاملة بالعموم لجميع الموجودات وهي : الجوهر والأعراض التسعة التي هي : الكم والكيف والأين والوضع ومتى والملك والإضافة والفعل والانفعال.

فالجناية من المترجمين، إذ لو نقلت الأسامي إلى العربية فقيل: كتاب المدخل، والمقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان لوُجدوا متسارعين إلى قبولها غير معترضين عنها}

قلت: ولا غرو فأكثر المترجمين كانوا إما صابئة حرانيين أو نصارى ممن لم يكن لهم كبير إلمام بمداليل الألفاظ في المنظورية العقدية الإسلامية، فجاءت ترجماتهم ركيكة الحبك وأقرب إلى العامية منها إلى العربية الفصحى الوعاء الحاوي للمنظورية الإسلامية كما خلدتها النصوص القرآنية وبلاغة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

فالمنطق إذن، في شقه الأرسطي مثّل جزءاً من ذلك الزبد الرابي. ومن ثماره مفهوم "**التأويل**" على طريقة: "**قانون التأويل الرجيومي الكلي الإغريقي**" {أنظر على هذا الموقع: مفهوم التأويل عند أرسطو}:

{أن تقول شيئاً ما عن شيء ما، هو أن تقول شيئاً آخر!}

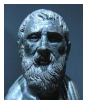

وكان للرواقيين الإغريق، أتباع زينون الكتيومي (*Zeno of Citium*) (335 – 264 ق.م) يعض عناية بالمسائل اللغوية، لا باعتبارهم نقاد قواعد ونصوص، بل لأن اللغة عندهم كانت تعبيراً عن الفكر والشعور. وكان الأدب في نظرهم يحتوي على معان وأفكار عميقة تكمن في الأسطورة والقصص الرمزي. وكان أول من استعمل الكلمة

---

[11] ومعناه : العبارة ويتبين فيه كيفية تركيب المعاني المفردة بالنسبة الإيجابية أو السلبية حتى تصير قضية وخبراً يلزمه أن يكون صادقاً أو كاذباً.

[12] ومعناه : التحليل بالعكس ويتبين فيه كيفية تركيب القضايا حتى يصير منها دليل يفيد علماً بمجهول وهو القياس.

اليونانيــة "استعارة" أو "مجاز" (Allegoricos) هــو الفيلــسوف الرواقــي أقليانتس الأسوسي (Cleanthes d'Assos) (331 – 232 ق.م) 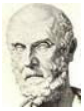 تلميذ زينون[13].

ويذكر أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشهرستاني (467 هـ – 548 هـ) أهل هــذه المدرســة بتسميتهم: "حكماء أهل المِظال" وهم خروسيس[14] وزينون"[15]، إلا أنه لا يظهر أن المسلمين وقفوا على كتــب لهذه الفرقة، وإن كانوا قد وقفوا على الكثير من أقوالهم.

ويمكن اعتبار أرستارخوس الساموتراسي ثم الإسكندراني (Αρίσταρχος ο Σαμοθράξ) (220 – 143 ق.م) (Aristarchus of Samothrace) ، القيم على مكتبة الإسكندرية الشهيرة للفترة (160 – 145 ق.م) وأحد المعلمين لديونسيوس الثراسي (Dionysius Thrax) (Διονύσιος ὁ Θρᾷξ) (170- 90 ق.م) المؤسس الفعلي للدراسات النصية الهوميرية. حيث قسم كلاً من ملحمتي "الإلياذة" و"الأوديسة" للشاعر اليوناني هــومير إلــى أربعة وعشرين كتاباً ستظل المرجع في بابها وإلى يوم الناس هذا.

ويعتبر ديونسيوس مبدع أول وصف دقيق للغة اليونانية حيث ألف القواعدَ الأولى لليونانية فــي كتابــه: "فَــنّ القواعدِ" (*Tékhnē grammatiké*) (Art of Grammar). وهو كتاب يهتم بالوصف الــصرفي للغــة اليونانيــة، ويَفتقرُ إلى أيّة معالجة للنحو ذاته.

---

[13] أنظر: روبنز، ر.، هــ.(Robins r., H.)، : "موجز تاريخ اللغة في الغرب" (A Short History of Linguistics", Longman, London, 1990")، ص. 52 ترجمة د/ أحمد عوض، "سلسلة عالم المعرفة" رقم 227، رجب 1418 هــ/نوفمبر 1997 م، الكويت.

[14] هو خريزيبوس السيليسي(Chrysippus of Soli) (281 – 205 ق.م) أحد رؤساء المدرسة الرواقية بعد زينون واقليانتس ، ألف حوالي سبعمائة مؤلف ضاع معظمها وهو الذي جعل من الرواقة مذهباً متكاملاً. وفلسفته تقوم على التوفيق بين القدر والحرية.

[15] الشهرستاني: "الملل والنحل" (2: 32)، طبعة 1347 هــ، القاهرة.

وقد عرف ديونيسيوس القواعد في بِداية كتابــه بكونهــا: "**المعرفة العملية للإستعمالاتِ العامّةِ لكُتّابِ النثرَ والشعر**."

لكن، وكغيره من العلماء الهلينيين السكندريين المُعاصرينِ الذين حرّروا نصوص اليونانية العتيقــة والنــصوص الهوميرية، فقد انصب اهتمامه على تَسهيل تعليم الأدبِ اليونانيِ الكلاسيكيِ لجمهورٍ لا يتقن سوى اللغة الدارجة الــشعبية المعروفة ب "باللهجة الكويْنية" (ἡ κοινὴ διάλεκτος) ("the common dialect") وهو كتاب باق إلى اليــوم[16] وإن فقد الأصل.

وهي معرفة ضاهتها أيضاً معرفة موازية لها تعلق بفارس الهند في مجاليهما.

وقد كان لفارس كما للهند سابق معرفة بعلوم الإغريق من خلال جامعة "**جنديسابور**" بالنسبة للأولى وما تركتــه حملة الإسكندر الأكبر بالنسبة للثانية. هذا زيادة على التثاقف الذي كان حاصلاً بين فارس والهند منذ قديم، مــن خــلال تاريخهما السياسي والديني المشترك.

لذلك نجد أن أول من يُنسب إليه ترجمة، أو تلخيص كتب أرســطو المنطقيــة الثلاثــة: "**قاطيغورياس**"، و"**باري أرمنياس**"، و"**أنالوطيقا الأولى**" وكتاب فرفوريوس الصوري "**إيساغوجي**"، هو **عبد الله بن المقفع** (ت: 142 هــ) كاتب الخليفة **أبي جعفر المنصور العباسي** (136 هــ – 158 هــ)، أو ابنه **محمد بن عبد الله بن المقفع**. ومرجعيتهمــا فارسية.

أما بخصوص مقاربة المسلمين لمعارف الهند، فقد أمر أبو جعفر المنصور، الخليفــة العباســي (ت: 158 هـــ) بترجمة كتاب: "**السندهند**"، وهي أكبر موسوعة هندية في الفلك والرياضيات، كان قد حملها إلى بغــداد الفلكــي "**كانكاه**" الهندي وقام بترجمته إلى العربية كــل مــن **إبراهيم الفزاري** (ت: 161 هـــ/777 م) و**يعقوب بن طارق** (ت: 180 هــ/796 م)، غير أن العرب لم تستطع استيعابه لقلة درايتهم بالرياضيات آنذاك.

---

[16] روبنز، ر.، هــ.(Robins r., H.)، : "موجز تاريخ اللغة في الغرب"، ص. 65.

ولا يستغرب أن يكون إلمام بعض المسلمين بهذا القدر من المعرفة بالأصول اللغوية اليونانية، سبباً في التأثر بها كمنهج يدفعهم لابتداع قواعد النحو والصرف الخاصة باللغة العربية. فهذا تأثر مبدع في حد ذاته، كما سيتوفق في ذلك أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (100- 174هـ) ، حين صوت اللغة العربية بحسب مخارج الحروف في قاموسه "العين"، على غرار ما ألفت الهند في صواتتها للغتها، وهو ما لم يعرفه الإغريق، مادام يستعير القالب دون المحتوى.

ثم جاء البيروني فعمل على مسح معارف الهند ومقارنتها سواء بما لدى الإغريق أو لدى المسلمين إلى زمنه. فهو يقول[17]:

{ولم يأت للهند أمثال "فلاسفة اليونان" ممن يهذب العلوم، فلا تكاد تجد لذلك خاص كلام إلا في غاية الاضطراب وسوء النظام ومشوباً في آخر خرافات العوام، من تكثير العدد، وتمديد المدد، ومن موضوعات النحلة التي يستطيع أهلها فيها المخالفة، ولأجله يستولي التقليد عليهم وبسببه أقول فيما هو بائن لي منهم: إني لا أشبِّه ما في كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف أو بدُرٍّ ممزوج ببعر أو بمهى مقطوب بحصى، والجنسان عندهم سيان، إذ لا مثال لهم لمعارج البرهان، وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاكٍ غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة، وذاكر من الأسماء والمواضعات في لغتهم ما لا بد من ذكره مرة واحدة يوجبها التعريف...}

قلت:

وقد مثّل كتاب البيروني: "ما للهند"، أول دراسة نقدية علمية مقارنة في حاضرة الإسلام.

وكان أبو نصر: محمد بن محمد الفارابي (260هـ/874 م - 339هـ/950 م)[18] 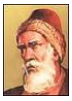 الذي أخذ الفلسفة والمنطق عن طريق أبي بشر: متى بن يونس القنائي النسطوري النصراني ببغداد، ويوحنا بن حيلان النصراني

---

[17] أبو الريحان البيروني: "تقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة"، ص. 19، طبعة حيدر آباد.

[18] اختلف في اسمه ونسبه ومؤلفاته حسب ما ورد عنه في ترجمته في: "الفهرست لابن النديم، و"طبقات الأمم" لابن صاعد، و"تتمة صوان الحكمة" لظهير الدين البيهقي، و"إخبار العلماء بأخبار الحكماء" للقفطي، و"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان.

بحران، قد ألف رسالة سماها: "**رسالة في قوانين صناعة الشعر**" هي عبارة عن تلخيص لكتاب أرسطو: "**فن الشعر**". وله كذلك:"**كتاب الخطابة**" و"**شرح كتاب العبارة**" وكلاهما لأرسطو. وألف كذلك كتاب: "**إحصاء العلوم**" وقسم فيه العلوم إلى زمنه، إلى ستة أقسام:

(1) علوم اللغة،
(2) علوم المنطق (وأدخل ضمنها: المقدمات، والتفسير، والقياس، والبرهان، والجدل، والمغالطة، والنقد، والشعر، والخطابة، والرياضيات)،
(3) وعلوم الطبيعة (الأرض، الأفلاك، النشوء والانحلال، والنفس، والحس والمحسوس، والنبات، والحيوان)،
(4) والعلوم المدنية،
(5) وعلم الكلام،
(6) وعلم ما وراء الطبيعة (الإلهيات): وهو تصنيف يتابع فيه المعلم الأول اليوناني: أرسطوطاليس بحذافيره، عدا ما أضاف إليه من علوم الإسلام.

وتلفيقية الفارابي طابع مُميز في كل مؤلفاته بل تظهر سافرة في محاولاته المسبوقة، إما من طرف اليهود أو المسيحيين في محاولة: **التوفيق بين أفلاطون وأرسطو**[19] في كتابه: "**الجمع بين الحكيمين!!!**[20] **أفلاطون وأرسطو**"، أو بين الفلسفة والدين!.

ويُمثل الفارابي أول تمظهر للأفلاطونية المحدثة بلباس اللغة العربية. وستظل هذه السمة ملتصقة بكل الفلاسفة الذين نشئوا ضمن الحضارة الإسلامية كصفة أو نعت، أو بصمة لنمط التفكير **اليوناني - الشرقي**، كما تمخض في المدرسة الهيلينية بالإسكندرية. بل لن يشذ عن هذه القاعدة حتى أحسنهم طريقة، كالقاضي: **أبي الوليد: محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي** (520 هـ/1126 م – 595 هـ/1198م)، المعروف بابن رشد الحفيد ، على الجانب القصيّ الغربي من العالم الإسلامي، الذي لن يتعدى قدره وحظه من الفلسفة أن يكون شارحاً لأرسطو لا أكثر!.

---

[19] بسبب نسبة رسالة: "أثولوجيا أرسطو" (كتاب الربوبية) وهو منحول على أرسطو!. وكذلك مدينته الفاضلة التي ما هي سوى رجع صدى لجمهورية أفلاطون!.

[20] وسيأتي الكلام على "الحكمة" أثناء عرضنا لمبدأ التأويل عند محمد بن جرير الطبري لاحقاً.

وتعجب أن يوجد وفي القرن الحادي والعشرين، من يدعي أن أوروبا تقدمت لتبنيها لأفكار ابن رشد في أعصارها المتوسطة، كما لا يكل أو يمل من الصدح بذلك المغربي المتفلسف خارج زمانه ومكانه ومرجعيته: **محمد عابد الجابري**

المبتلى بهذه البلية التلفيقية دون أن يرتد له طرف!

وعلى غرار ما يمكن أن يلاحظ المرء في التلفيقة اليهودية الفيلونية {نسبة إلى الفيلسوف اليهودي المعاصر للمسيح عليه السلام: فيلون السكندري[21])، أو المسيحية عند آباء الكنيسة الأول، فسيجرب الفارابي ذات الحظ العاثر! مع الإسلام من نمطية قوله:

{والعقل الفعال هو الذي ينبغي أن يقال له الروح الأمين! وروح القدس..ويسمى الملكوت وأشباه ذلك من الأسماء!!}

وهو تخريف وتلفيق محض يُسقط مفاهيم تخرُّصية وخرافية لأفلوطين (Πλωτῖνος) (205 – 270 م)[22]

في نظرية "الفيض"، على مفاهيم إسلامية مخالفة ومحددة المعنى في الدين الإسلامي!.

---

[21] أنظر نموذج لهذه التلفيقة التي سيأخذ به المعتزلة نقلاً عنه في القول ب "خلق القرآن" في رسالة نتاليا (Reply to Natalia (part 3)) على موقعنا هذا

[22] يعتبر "أفلوطين" السكندري من الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود وقد أثرت أفكاره العرفانية على المتصوفة الغنوصيين المحسوبين على الإسلام من شاكلة ابن عربي الحاتمي وغيره وخاصة ما يتعلق منها بالنفس وتصفيتها وتطهيرها من الأدران والشهوات، لتعود طاهرة نقية إلى الكل الذي انبثقت منه. أنظر لمزيد: "أفلوطين"

لمصطفى غالب نشر: دار ومكتبة الهلال.

وعلى خُطى من سبقوه من متفلسفة مدرسة الإسكندرية الأفلوطينية، ممن تدرّج بالمنطقة وبرع في التلفيق.، سنجده يحاول التوفيق بين الفلسفة والدين في نزعة شرقية مشهودة في تاريخ المنطقة باعتبار "وحدة الحقيقة والأصل"!.

وهكذا سيكون النبي عنده، يتصل بالملأ الأعلى بواسطة قوته المتَخَيّلة!، بينما الفيلسوف يفعل ذلك بواسطة عقله المنفعل ليتصل بذات الملأ!. لكن مع فارق، وهو:

أن الفيلسوف في نظره يظل دائماً فوق النبي!.

فنظرية الفيض هنا، التجأ إليها ليتحَرّر من قول أرسطو بقدم العالم، وكذلك من قول أفلاطون بوجود مادة قديمة وعالم المثل. وكلاهما تخريفان يناقضهما القرآن مناقضة صريحة!.

فإن كان "التأويل" التلفيقي ظاهر في مؤلفات الفارابي، الذي عاش أواخر أيامه في حماية سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان (ت: 356 هـ) الحمداني، في خلافة الراضي بالله: أبي إسحاق، محمد بن أبي أحمد بن المتوكل العباسي (323 هـ – 329 هـ)، الذي شهد عهده الانحطاط النهائي للخلافة في بغداد، فسنجد "التأويل" على مقتضى "قانون التأويل الكلي اليوناني" يدخل حيز التداول المعرفي على يد الفيلسوف الآخر، ابن سينا: الحسين بن عبد الله (: 428 هـ) في كتابه "الشفا"، نقلاً عن أرسطوطاليس أيضاً وبوعي تام! حين تكلم عن "اللفظ" فقال[23]:

{وكل لفظ دال، فإما حقيقي مُستَولٍ، وإما لغة، وإما زينة، وإما موضوع، وإما منفصل، وإما مُتغير. والحقيقي هو: اللفظ المستعمل في الجمهور المطابق بالتواطؤ للمعنى..،
وأما النقل (أي المنقول عن حقيقته وظاهره)، فإنما يكون أول الوضع والتواطؤ على معنى، وقد نُقِل عنه إلى معنى آخر، من غير أن صار كأنه اسمه، صيرورة، لا يميز معها بين الأول والثاني. فتارة يُنقل من الجنس إلى النوع،

[23] ابن سينا: "كتاب الشفا"، "الكتاب الرابع في المنطق":فن الشعر لأرسطوطاليس" (9: 66)، تحقيق د/عبد الرحمن بدوي بمناسبة الذكرى الألفية لابن سينا

وتارة من النوع إلى الجنس، وتارة من نوع إلى نوع، وتارة إلى منسوب إلى شيء من مشابهة في النسبة إلى رابع، مثل قولهم للشيخوخة إنه: "مساء العمر" أو "خريف الحياة"}[24]

وسوف يُلخص **عبد الحق بن إبراهيم بن نصر بن محمد بن سبعين** ا(614 هـ -669 هـ)، الذي كانت له بدوره، دراية وعناية بمدارك الفلاسفة والمتصوِّفة سواء، القول في هؤلاء المخضرمين المُلَفِّقين[25]، وإن من منطلق تلفيقي آخر، جمع بين **الفلسفة والتصوف**. وسيُصدر أحكاماً قاسية على بعضهم. قال عن:

الفارابي بأنه:

{اضطرب وخلّط وتناقض!}،

وابن رشد بأنه:

{مفتون بأرسطو ومعظم له ويكاد يقلده في الحسّ والمعقولات الأولى..، وأكثر تواليفه من كلام أرسطو، إما يلخصها وإما يمشي معها!}،

وابن سينا بأنه:

{مُموِّه، مُسفسط، كثير الطّنطنة، قليل الفائدة....وأكثر كتبه مؤلفة ومستنبطة من كتب أفلاطون!، والذي فيها من عنده فشيء لا يصلح!، وكلامه لا يُعول عليه!}،

وبأنّ **أبا حامد الغزالي**:

{لسان دون بيان!، وصوت دون كلام!، تخليط يجمع الأضداد!، وحَيْرة تُقَطِّع الأكباد!، مرّة صوفي!، وأخرى فيلسوف!، وثالثة أشعري!، ورابعة فقيه!، وخامسة مُحَيِّر!. وإدراكه بالعلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت!، وفي التصوف كذلك!، لأنه دخل الطريق بالاضطرار الذي دعاه لذلك من عدم الإدراك!!!}

وهي أحكام لا تخلو من طرافة ومنطق!، ما دام الكل ملفق ومُهجن ومُسفسط!، ومن ضمنهم ابن سبعين نفسه!.

---

[24] فهم ابن سينا للتراث الإغريقي كان يمر عبر المترجمين الذين لم يكونوا أدباء أنفسهم ولا ملمين بأساليب اليونان. فقد ترجم أبو بشر متى بن يونس القنائي في كتاب: "فن الشعر" لأرسطو، كلمة "تراقوديا"(Tragodia) (المأساة) ب: "المديح"! و"قوموديا" (Komodia) (الملهاة) ب: "الهجاء" وتابعه بن سينا، إلا أن اعتماده الأكبر في الفهم كان على أبي نصر، محمد بن محمد الفارابي (ت: 339 هـ) في كتابه: "مقالة في قوانين صناعة الشعراء"

[25] محمد ياسر شرف: الوحدة المطلقة عند ابن سبعين" ص. 114، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سلسلة دراسات (271)، 1981 م، بغداد.

وقد ظل هذا التعريف ل "التأويل" محصوراً في أول أمره، ضمن نطاق جماعة ضيقة ممن كانوا يتعاطون الفلسفة من المسلمين، الآخذين جل معارفهم من هذه المرجعية أو الخالطين لها بتلفيق مع غيرها، على ما اعتادت المنطقة.

ولعل أبا الفتوح، شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي (549 هـ - 587 هـ) المقتول، خير من مثل هذا الاتجاه التلفيقي العام، الجامع لكل موروث المنطقة في كتبه: "حكمة الإشراق"، و"هياكل النور"، و"المعارج"، و"التلويحات" و"اللمحات"، و"مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم"...إلخ.، حيث يمزج بين موروث فارس في الرزرادشتية والمانوية، وموروث الغنوصية الشرقية الملتصقة بهرمس المثلث بالعظمة (HermèsTrismejiste)، وأغاثوذيمون المصري (Agathodemon)، وفيثاغورس ، وأمبادقليس (Empedocles) اليونانيين، وفلسفة الهند وفارس،.وصِهر الكل في بوثقة فكر واحدة بغية الوصول إلى "الوحدة الشاملة" التي عبر عنها كل واحد من هؤلاء على حدة!.

قلت : والملفت في هذه الصرعة يومها أمران:

أ) تجلّد علماء الكلام، على اختلاف مشاربهم ومنازعهم ومذاهبهم، في مناوأتهم للفلسفة الإغريقية، في جانبها الإلهي الأسطوري الشركي خاصّة.

ب) لم يُعِر الأدباء المسلمون لآداب الإغريق الشعرية الممثلة في: "الإلياذة" و"الأوديسة" لهوميروس (Homeros)، و"قصيدة "أصل الآلهة" (Theogonia) لهسيودس (Hesiodos) ومسرحية: "أوديب ملكاً"لسوفقليدس (Sophocles)، ومسرحية:""إيفيجنيا" ليوريبيدس (Euripides) وغيرها، من اهتمام، رغم علم بعضهم بها، لعلمهم باستحالة إمكانية تبيئتها في البيئة الإسلامية، لذات المحاذير الشركية الأسطورية الخرافية!.

و"الإلياذة" و"الأوديسة"، كما لا يخفى، وعلى ما مرّ بنا،[26] تقومان ضمن الحضارة والمرجعيـــة اليونانيـــة، مقـــام "الأصول النّصيّة" في "التأويلية" الإغريقية. وكلتاهما ك "نصوص"، على طرفي نقيض، سواء من ناحية الرؤى أو المفاهيم أو المقاصدية، مع روح النّصيّة في "التأويلية" الإسلامية.

ولم يكن بمقدور شعراء العربية أو الكَلِفين بالآداب واللغـــة مـــنهم، أن يفهموهمـــا أو يتمثلوهمـــا ولا حتـــى أن يستلهموها!.فكتابي: "فن الشعر"[27] و "الخطابة" لأرسطو، نقلا إلى العربية ضمن كتب المنطق، ولم ينقلا بصفتهما "كتابي نقد وبلاغة". ثم إن جل مباحث "فن الشعر"، كانت حول "المأساة" و"الملحمة" كما عرفها الشعر والمسرح اليونانيين[28]. وهي ضروب من الفن لم تعرفها العرب آنذاك.

وسيجد كتاب: "العبارة" لأرسطو بعض تطبيق لدى متأخري علماء الكلام والأصول أثناء تحليلهم للألفاظ.

لكن، ومع مرور الزمن، وتقادم العهد بالناس، سنجد من سيبدأ باستعارة هذا النوع من التأويـــل مـــن الإغريـــق، ليستعمله بحذافيره في مجال "التأويل" الإسلامي، سواء أتعلق الأمر بالمعتزلة، أو الأشعرية أو بأصوليي المذاهب الفقهية عامة. وستظهر ذات الأنماط "التأويلية"، التي كانت قد عرفها اليهود ثم المسيحيون، تحت تأثير وازع التلفيقيـــة ضـــمن الأفلاطونية المحدثة. وهكذا سنجد أكثر المستعملين ل "التأويل" الخارج عن المرجعية يندرجون ضمن ثلاثة زُمَر:

أ) زمرة المتفلسفة، ثم

---

[26] أنظر كتابنا: "تنزيل الفقه: التأويلية الإسلامية في ماضيها إلى الطبري"

[27] ألفه أرسطو في مدينة أثينا حوالي 334 ق. م وكان في الأصل من جزأين، إلا أن الأصل الثاني الذي كان يحتوي علىدراسة تفصيلية عن "الملهاة" (الكوميديا) قد ضاع. والذي ولنا وترجم إلى العربية كان عبارة عن مذكرات استعان بها أرسطو في تدريسه و لم يعدها للنشر. وقد سبق هذا الكتاب في التأليف كتاب "الخطابة". والكتاب كما وصلنا يحوي مقدمة عن "التراجيديا" و"الملحمة" ومقارنة عامة بينهما. ولضياع كتاب: "الكوميديا" فالكتاب ناقص ولا يتضمن كل منهجه. ويتكلم أرسطو عن الشعر كفن من فنون المحاكاة كالرسم والموسيقى ويقسم الشعر إلى سردي ودراماتيكي. وهكذا يشرح أن "هوميروس" عندما يتحدث بلسان غيره فشعره دراماتيكي، أما إذا روى عن غيره فشعره سردي فقط.

[28] وإثر صدور ترجمة ل "الإلياذة" الهوميرية مع بداية القرن العشرين علق رشيد رضا القلموني بقوله: {الآن عرفنا موقف العرب من الشعر اليوناني، ولماذا نبذوه و لم يترجموه ويأخذوا من معانيه} وما ذلك سوى لشركياتها وأساطيرها وخرافاتها التي لا تتماشى مع التطلعات الإسلامية. انظر" عباس ارحيلة، 1991 : "الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري: عروض لإشكالات الكتاب ومداخله المنهجية"، ص.93. أطروحة دكتوراه، طبع جامعة محمد الخامس 1999 م، الرباط.

ب) **المتصوفة**[29]ة، ثم

ت) **دعاة العقلانية**، الذين مثلهم حزب المعتزلة[30].

وسنجد من سيلخص هذه الخضرمة وهذه الخلاسية التلفيقية ببيت شعر بليغ يقول:

فارقتَ عِلم الشافعي ومالك وشرّعت في الإسلام رأي دقلس[31]

إنتهى

ويليه الجزء السابع

---

[29] كما عند أبي حامد الغزالي في كتاب: "جواهر القرآن". وهو لا يسطيع أن يمثل بالأمثلة التي يوردها ارسطو في شواهده!، فيقول: {إذ اكثر ما فيه اقتصاص أشعار ورسوم كانت خاصة بهم، ومتعارفة بينهم، يغنيهم تعارفهم إياها عن شرحها وبسطها}، أنظر: "الشفا"، "الشعر" ص. 31..

[30] كما نجد عند أبي القاسم، جار الله محمد بن عمر الزمخشري في كتاب: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" وهو كتاب فيه كل شيء سوى التفسير، كما سيحكمون عليه، لأنه يؤول كل الآيات المتشابهة حسب التأويل العقلي للمعتزلة.

[31] يعني به الفيلسوف الإغريقي أمباذوقلس الإغريغنتي (حوالي 494 – 445 ق.م)